المثل الثامن والعشرون

صاحب الجنتين

المثل الثامن والعشرون:
صاحب الجنتين

يقول الله سبحانه:

{وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾} [الكهف: ٣٢ - ٤٤].

قال ابن كثير:

يقول تعالى بعد ذكره المشركين، المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلاً برجلين، جعل الله لأحدهما جنتين، أي بستانين من أعناب محفوفتين بالنخيل المحدقة في جنباتهما وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية

الجودة، ونقل السهيلي: عن محمد ابن الحسن المقري: اسم الخيِّر من الرجلين (تمليخا) واسم الآخر (قوطيس) وأنهما كانا شريكين، ثم اقتسما المال، فصار لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فاشترى المؤمن منهما عبيداً بألف وأعتقهم، وبالألف الثانية ثياباً وكسا العراة، وبالألف الثالثة طعاماً وأطعم الجياع، وبنى أيضاً مساجد، وفعل خيراً - وأما الآخر: فنكح بماله نساء ذات يسار، واشترى دواب وبقراً فاستنتجها فنمت له نماء مفرطاً، واتجر بباقيها فربح حتى فاق أهل زمانه غنى. وأدركت الأول الحاجة فأراد أن يستأجر نفسه في جنة يخدمها فقال: لو ذهبت إلى شريكي وصاحبي فسألته أن يستخدمني في بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصلح لي، فجاء فلم يكد يصل إليه من غلظ الحُجّاب فلما دخل عليه وعرفه سأله حاجته، قال: ألم أكن قاسمتك المال شطرين، فما صنعت بمالك؟ قال: اشتريت به من الله، ما هو خير وأبقى. قال: أئنك لمن المصدقين، ما أظن الساعة قائمة، وما أراك إلا سفيهاً، وما جزاؤك عندي على سفاهتك إلا الحرمان. أو ما ترى ما صنعت أنا بمالي حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن المال؟ وذلك أني كسبت وسفهت أنت، اخرج عني. ثم كان من قصة هذا الغني ما ذكره الله في القرآن من الإحاطة بثمرها وذهابها أصلاً. وفي عجائب الكرماني، قيل: كانا أخوين في بني إسرائيل، أحدهما مؤمن اسمه (تمليخا) وقيل: (يهوذا)، والآخر كافر اسمه (نطروس) وهما المذكوران في سورة الصافات{قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ} [الصافات: ٥١ - ٥٢]، الآية. ولهذا قال:{كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا} أي أخرجت ثمرها{وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا} أي لم تنقص منه شيئاً{وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا} أي والأنهار متفرقة ههنا وههنا{وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ} قيل: المراد به المال، وقيل: الثمار، وهو أظهر

ههنا،{فَقَالَ} أي صاحب هاتين الجنتين{لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ} أي يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس{أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا} أي أكثر خدماً وحشماً وولداً، قال قتادة: تلك والله أمنية الفاجر، كثرة المال، وعزة النفر. وقوله:{وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ} أي بكفره وتمرده وتجبره وإنكاره المعاد،{قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا} وذلك اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة، ولهذا قال:{ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً} أي كائنة،{وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا} أي ولئن كان معاد ورجعة إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى{وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ} [فصلت: ٥٠]، وقال: {أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾} [مريم: ٧٧].

ثم يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار:{أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ}، وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه، وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ} [البقرة: ٢٨]، الآية، أي كيف تجحدون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة جلية، ولهذا قال المؤمن{لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى} : أي لكن لا أقول بمقالتك بل أعترف لله بالواحدنية والربوبية،{وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا} أي بل هو الله المعبود وحده لا شريك له، ثم قال:{ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا}، هذا

تخصيص وحث على ذلك، أي هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد روي فيه حديث مرفوع عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :«ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت» أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي ". وكان يتأول هذه الآية:{ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ }، وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له:«ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله».

وقال أبو هريرة، قال لي رسول الله ﷺ : «يا أبا هريرة ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟» قال، قلت: فداك أبي وأمي، قال: (أن تقول لا قوة إلا بالله). قال أبو بلخ وأحسب أنه قال: (فإن الله يقول: أسلم عبدي واستسلم)[1].

وقوله:{ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ } أي في الدار الآخرة،{وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا} أي على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى{حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ }، قال ابن عباس والضحاك: أي عذاباً من السماء، والظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقلع زرعها وأشجارها، ولهذا قال:{فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا}، أي بلقعاً تراباً أملس، لا يثبت فيه قدم. وقال ابن عباس: كالجرز الذي لا ينبت شيئاً، وقوله:{ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

غَوْرًا} أي غائراً في الأرض وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض. فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى: {قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾} [الملك: ٣٠]، أي جار وسائح، وقال ههنا:{أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا} ثم يقول تعالى:{وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ} بأمواله وبثماره ما كان يحذر مما خوّفه به المؤمن، من إرسال الحسبان على جنته التي اغتر بها وألهته عن الله عزّ وجلّ،{فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا}، وقال قتادة: يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها،{وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ} أي عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعزّ {يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ} أي الموالاة لله، أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: {فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾} [غافر: ٨٤]. وكقوله إخباراً عن فرعون:{حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ} [يونس: ٩٠]، ومنهم من كسر الواو من {ٱلْوَلَٰيَةُ} أي هنالك الحكم لله الحق، كقوله: {ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ} [الأنعام: ٦٢] الآية. ولهذا قال تعالى:{هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا} [الكهف: ٤٤] : أي جزاءً{وَخَيْرٌ عُقْبًا} [الكهف: ٤٤]، أي الأعمال التي تكون لله عزَّ وجلَّ ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير.

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾} [الكهف: ٥٤].

* * *

المثل التاسع والعشرون

مثل الحياة الدنيا

المثل التاسع والعشرون:
مثل الحياة الدنيا

يقول الله جل وعلا:

{ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ }
[الكهف: ٤٥ - ٤٦].

قال ابن كثير:

يقول تعالى:{ وَاضْرِبْ} يا محمد للناس{مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا } في زوالها وفنائها وانقضائها،{كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ} أي ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور، والنُضرة، ثم بعد هذا كله{فَأَصْبَحَ هَشِيمًا} يابساً{تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ } أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال،{وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا} أي هو قادر على هذه الحال وهذه الحال، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما قال تعالى في سورة يونس:{إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ} [يونس: ٢٤]، الآية - وقد سبق في المثل السادس عشر -، وقال في سورة الحديد:{ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ} [الحديد: ٢٠] الآية، وسوف يأتي في المثل الثاني والثلاثين إن شاء الله تعالى، وفي الحديث الصحيح: «الدنيا خضرة حلوة». وقوله:{الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا} كقوله:{ زُيِّنَ

لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ} [آل عمران: ١٤] الآية. وقال تعالى: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾} [التغابن: ١٥] : أي الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم والشفقة المفرطة عليهم، ولهذا قال:{وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا }، قال ابن عباس وسعيد ابن جبير، وغير واحد من السلف: الباقيات الصالحات: الصلوات الخمس. وقال ابن عباس:{وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ} : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ عن{وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ} ما هي؟ فقال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وروي عن سعيد بن المسيب قال: الباقيات الصالحات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، وقال محمد بن عجلان عن عمارة قال: سألني سعيد بن المسيب عن الباقيات الصالحات، فقلت: الصلاة والصيام، فقال: لم تصب، فقلت: الزكاة والحج، فقال: لم تصب، ولكنهن الكلمات الخمس: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :«سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هنّ الباقيات الصالحات» [(١)].

{كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ} [الرعد: ١٧].

* * *

(١) أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة.

المثل الثلاثون

لن يخلُقوا ذُباباً

المثل الثلاثون:
لن يخلقوا ذبابا

يقول الله تبارك وتعالى:

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾} [الحج: ٧٣].

قال القرطبي:

قوله تعالى{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ} هذا متصل بقوله:{وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا} [الحج: ٧١]. وإنما قال{ضُرِبَ مَثَلٌ} لأن حجج الله تعالى عليهم بضرب الأمثال أقرب إلى أفهامهم. فإن قيل: فأين المثل المضروب؟ ففيه وجهان: **الأول:** قال الأخفش: ليس ثَمّ مثل، وإنما المعنى ضربوا لي مثلا فاستمعوا قولهم؛ يعني أن الكفار جعلوا لله مثلا بعبادتهم غيره؛ فكأنه قال جعلوا لي شبيها في عبادتي فاستمعوا خبر هذا الشبه.

الثاني: قول القتبي: وأن المعنى يا أيها الناس، مثل من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق ذبابا وإن سلبها الذباب شيئا لم تستطع أن تستنقذه منه. وقال النحاس: المعنى ضرب الله عز وجل ما يعبد من دونه مثلا، قال: وهذا من أحسن ما قيل فيه؛ أي بين الله لكم شبها ولمعبودكم.{إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ} قراءة العامة{تَدْعُونَ} بالتاء. وقرأ السلمي وأبو العالية ويعقوب{يدعون} بالياء على الخبر. والمراد الأوثان الذين عبدوهم من دون الله، وكانت حول الكعبة، وهي ثلاثمائة وستون صنما.

وقيل: السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله عز وجل. وقيل: الشياطين الذين حملوهم على معصية الله تعالى، والأول أصوب.{لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا} الذباب اسم واحد للذكر والأنثى، والجمع القليل أذبة والكثير ذبان؛ على مثل غراب وأغربة وغربان؛ وسمي به لكثرة حركته.

قال الجوهري: والذباب معروف الواحدة ذبابة، ولا تقل ذبانة. والمذبة ما يذب به الذباب. وذباب أسنان الإبل حدها. وذباب السيف طرفه الذي يضرب به. وذباب العين إنسانها. والذبابة البقية من الدين. وذبب النهار إذا لم يبق منه إلا بقية. والتذبذب التحرك. والذبذبة نوس الشيء المعلق في الهواء.

{وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ} الاستنقاذ والإنقاذ التخليص. قال ابن عباس: (كانوا يطلون أصنامهم بالزعفران فتجف فيأتي الذباب فيختلسه). وقال السدي: كانوا يجعلون للأصنام طعاما فيقع عليه الذباب فيأكله.{ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} قيل: الطالب الآلهة والمطلوب الذباب. وقيل بالعكس. وقيل: الطالب عابد الصنم والمطلوب الصنم؛ فالطالب يطلب إلى هذا الصنم بالتقرب إليه، والصنم المطلوب إليه. وقد قيل{وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا} راجع إلى ألمه في قرص أبدانهم حتى يسلبهم الصبر لها والوقار معها. وخص الذباب لأربعة أمور تخصه: لمهانته وضعفه ولاستقذاره وكثرته؛ فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبدوه من دون الله عز وجل على خلق مثله ودفع أذيته فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين وأربابا مطاعين. وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان.

وقال الزمخشري في الكشاف:

فإن قلت: الذي جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلاً قلت: قد سميت

الصفة أو القصة الرائعة المتلقاة بالاستحسان والاستغراب: مثلاً تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيرة لكونها مستحسنة مستغربة عندهم. قرىء: "تدعون" بالتاء والياء ويدعون: مبنياً للمفعول "لن" أخت "لا" في نفي المستقبل إلا أن "لن" تنفيه نفياً مؤكداً وتأكيده ههنا للدلالة على أن خلق الذباب منهم مستحيل مناف لأحوالهم كأنه قال: محال أن يخلقوا فإن قلت: ما محل:{وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ} قلت: النصب على الحال كأنه قال: مستحيل أن يخلقوا الذباب مشروطاً عليهم اجتماعهم جميعاً لخلقه وتعاونهم عليه وهذا من أبلغ ما أنزله الله في تجهيل قريش واستركاك عقولهم والشهادة على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه حيث وصفوا بالإلهية - التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها والإحاطة بالمعلومات عن آخرها - صوراً وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله وأذله وأصغره وأحقره ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا. وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم: أن هذا الخلق الأقل الأذل لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه لم يقدروا.

وقوله: "ضعف الطالب والمطلوب" كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف. ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف لأن الذباب حيوان وهو جماد وهو غالب وذاك مغلوب.

وعن ابن عباس: أنهم كانوا يطلونها بالزعفران ورؤوسها بالعسل ويغلقون عليها الأبواب فيدخل الذباب من الكُوى فيأكله.

وقال ابن كثير:

يقول تعالى منبهاً على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ} أي لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به {فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ} أي أنصتوا وتفهموا{إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن

يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ} أي لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد، على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك؛ كما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال:«قال الله عزَّ وجلَّ: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟ فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة» (١).

ثم قال تعالى أيضاً:{وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ} أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا قال:{ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ}، قال ابن عباس: الطالب الصنم، والمطلوب الذباب؛ واختاره ابن جرير، وقال السدي وغيره: الطالب العابد والمطلوب الصنم، ثم قال:{مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ} [الحج: ٧٤]، أي ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها،{إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٧٤]، أي هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء، {وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: ٢٧]،{إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾} [الذاريات: ٥٨]، وقوله{عَزِيزٌ} أي قد عزَّ كل شيء وغلبه، فلا يمانع ولا يغالب، لعظمته وسلطانه وهو الواحد القهار.

{مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾} [الحج: ٧٤].

{وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم: ٢٥].

* * *

(١) أخرجاه في الصحيحين ورواه الإمام أحمد.

المثل الحادي والثلاثون

الله نور السماوات والأرض

المثل الحادي والثلاثون:
الله نور السماوات والأرض

يقول الله جل وعلا:

{ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾} [النور: ٣٥].

قال القرطبي:

النور في كلام العرب: الأضواء المدركة بالبصر. واستعمل مجازا فيما صح من المعاني ولاح فيقال منه: كلام له نور. ومنه: الكتاب المنير، ومنه قول الشاعر:

نسب كأن عليه من شمس الضحى ::: نورا ومن فلق الصباح عمودا

فيجوز أن يقال: لله تعالى نور من جهة المدح لأنه أوجد الأشياء ونور جميع الأشياء منه ابتداؤها وعنه صدورها وهو سبحانه ليس من الأضواء المدركة جل وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا. وقد قال هشام الجواليقي وطائفة من المجسمة: هو نور لا كالأنوار، وجسم لا كالأجسام. وهذا كله محال على الله تعالى عقلا ونقلا على ما يعرف في موضعه من علم الكلام. ثم إن قولهم متناقض؛ فإن قولهم جسم أو نور حكم عليه بحقيقة ذلك، وقولهم لا كالأنوار ولا كالأجسام نفي لما أثبتوه من الجسمية والنور؛ وذلك متناقض، وتحقيقه في علم الكلام. والذي أوقعهم في ذلك ظواهر اتبعوها منها

هذه الآية، وقوله عليه الصلاة والسلام إذا قام من الليل يتهجد:«اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض». وقال ﷺ وقد سئل: هل رأيت ربك؟ فقال:«رأيت نورا». إلى غير ذلك من الأحاديث.

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية؛ فقيل: المعنى أي به وبقدرته أنارت أضواؤها، واستقامت أمورها، وقامت مصنوعاتها. فالكلام على التقريب للذهن؛ كما يقال: الملك نور أهل البلد؛ أي به قوام أمرها وصلاح جملتها؛ لجريان أموره على سنن السداد. فهو في الملك مجاز، وهو في صفة الله حقيقة محضة، إذ هو الذي أبدع الموجودات وخلق العقل نورا هاديا؛ لأن ظهور الموجود به حصل كما حصل بالضوء ظهور المبصرات، تبارك وتعالى لا رب غيره ولا إله سواه. قال معناه مجاهد والزهري وغيرهما. قال ابن عرفة: أي منور السماوات والأرض. وكذا قال الضحاك والقرظي. كما يقولون: فلان غياثنا؛ أي مغيثنا. وفلان زادي؛ أي مزودي. قال جرير:

وأنت لنا نور وغيث وعصمة ::: ونبت لمن يرجو نداك وريق

أي ذو ورق. وقال مجاهد: مدبر الأمور في السماوات والأرض، وقال أبيّ بن كعب والحسن وأبو العالية: مزين السماوات بالشمس والقمر والنجوم، ومزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين. وقال ابن عباس وأنس: المعنى الله هادي أهل السماوات والأرض. والأول أعم للمعاني وأصح مع التأويل.

قوله{مَثَلُ نُورِهِۦ} أي صفة دلائله التي يقذفها في قلب المؤمن؛ والدلائل تسمى نورا. وقد سمى الله تعالى كتابه نورا فقال {وَأَنزَلْنَآ

إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا } [النساء: ١٧٤]، وسمّى نبيه نورا فقال:{قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ } [المائدة: ١٥] . وهذا لأن الكتاب يهدي ويبين وكذلك الرسول. ووجه الإضافة إلى الله تعالى أنه مثبت الدلالة ومبينها وواضعها. وتحتمل الآية معنى آخر ليس فيه مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثل به، بل وقع التشبيه فيه جملة بجملة، وذلك أن يريد مثل نور الله الذي هو هداه وإتقانه صنعة كل مخلوق وبراهينه الساطعة على الجملة، كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه أنتم على هذه الصفة، التي هي أبلغ صفات النور الذي بين أيدي الناس؛ فمثل نور الله في الوضوح كهذا الذي هو منتهاكم أيها البشر. والمشكاة: الكُوّة في الحائط غير النافذة؛ قال ابن جبير وجمهور المفسرين، وهي أجمع للضوء، والمصباح فيها أكثر إنارة منه في غيرها، وأصلها الوعاء يجعل فيه الشيء. والمشكاة وعاء من أدم كالدلو يبرد فيها الماء؛ وهو على وزن مفعلة كالمصفاة. قال الشاعر:

كأن عينيه مشكاتان في حجر ::: قيضا اقتياضا بأطراف المناقير

وقيل: المشكاة عمود القنديل الذي فيه الفتيلة. وقال مجاهد: هي القنديل. وقال{فِي زُجَاجَةٍ} لأنه جسم شفاف، والمصباح فيه أنور منه في غير الزجاج. والمصباح: الفتيل بناره{كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ} أي في الإنارة والضوء. وذلك يحتمل معنيين: إما أن يريد أنها بالمصباح كذلك، وإما أن يريد أنها في نفسها لصفائها وجودة جوهرها كذلك. وهذا التأويل أبلغ في التعاون على النور. قال الضحاك: الكوكب الدري هو الزُهرة.

قوله{يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ} أي من زيت شجرة، فحذف المضاف. والمباركة المنماة؛ والزيتون من أعظم الثمار نماء، والرمان كذلك. والمعنى يقتضي ذلك.

وقيل: من بركتهما أن أغصانهما تورق من أسفلها إلى أعلاها. وقال ابن عباس: في الزيتونة منافع، يسرج بالزيت، وهو إدام ودهان ودباغ، ووقود يوقد بحطبه وتفله، وليس فيه شيء إلا وفيه منفعة، حتى الرماد يُغسل به. وهي أول شجرة نبتت في الدنيا، وأول شجرة نبتت بعد الطوفان، وتنبت في منازل الأنبياء والأرض المقدسة، ودعا لها سبعون نبيا بالبركة؛ منهم سيدنا إبراهيم، ومنهم سيدنا محمد ﷺ فإنه قال:«اللهم بارك في الزيت والزيتون». قاله مرتين.

قوله:{لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ} اختلف العلماء في قوله:{لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ} فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة وغيرهم: الشرقية التي تصيبها الشمس إذا أشرقت ولا تصيبها إذا غربت لأن لها سترا. والغربية عكسها؛ أي أنها شجرة في صحراء ومنكشف من الأرض لا يواريها عن الشمس شيء وهو أجود لزيتها، فليست خالصة للشرق فتسمى شرقية ولا للغرب فتسمى غربية، بل هي شرقية غربية.

وقال الطبري عن ابن عباس: إنها شجرة في دوحة قد أحاطت بها؛ فهي غير منكشفة من جهة الشرق ولا من جهة الغرب. قاله ابن عطية: وهذا قول لا يصح عن ابن عباس لأن الثمرة التي بهذه الصفة يفسد جناها وذلك مشاهد في الوجود. وقال الحسن: ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا، وإنما هو مثل ضربه الله تعالى لنوره، ولو كانت في الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية. الثعلبي: وقد أفصح القرآن بأنها من شجر الدنيا؛ لأنها بدل من الشجرة، فقال{زَيْتُونَةٍ}. وقال ابن زيد: إنها من شجر الشام؛ فإن شجر الشام لا شرقي ولا غربي، وشجر الشام هو أفضل الشجر، وهي الأرض المباركة، و{شَرْقِيَّةٍ} نعت{الزيتونة} و{لَّا} ليست تحول بين النعت والمنعوت،{وَلَا غَرْبِيَّةٍ} عطف عليه.

قوله:{يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ} مبالغة في حسنه وصفائه وجودته.{نُورٌ عَلَى نُورٍ} أي اجتمع في المشكاة ضوء المصباح إلى ضوء الزجاجة وإلى ضوء الزيت فصار لذلك نور على نور. واعتقلت هذه الأنوار في المشكاة فصارت كأنور ما يكون فكذلك براهين الله تعالى واضحة وهي برهان بعد برهان، وتنبيه بعد تنبيه؛ كإرساله الرسل وإنزاله الكتب، ومواعظ تتكرر فيها لمن له عقل معتبر. ثم ذكر تعالى هداه لنوره من شاء وأسعد من عباده، وذكر تفضله لعباده في ضرب الأمثال لتقع لهم العبرة والنظر المؤدي إلى الإيمان. وقرأ عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة وأبو عبد الرحمن السلمي{اللَّهُ نُوْرُ} بفتح النون والواو المشددة. واختلف المتأولون في عود الضمير في{نُورِهِ} على من يعود؛ فقال كعب الأحبار وابن جبير: هو عائد على محمد ﷺ أي مثل نور محمد ﷺ قال ابن الأنباري{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} وقف حسن، ثم تبتدئ{مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ} على معنى نور محمد ﷺ وقال أبي بن كعب وابن جبير أيضا والضحاك: هو عائد على المؤمنين. وفي قراءة أبيّ{مثل نور المؤمنين}. وروي أن في قراءته{مثل نور المؤمن}. وروي أن فيها{مثل نور من آمن به}. وقال الحسن: هو عائد على القرآن والإيمان. قال مكي: وعلى هذه الأقوال يوقف على قوله{وَالْأَرْضِ}. قال ابن عطية: وهذه الأقوال فيها عود الضمير على من لم يجر له ذكر، وفيها مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثل فعلى من قال: الممثل به محمد ﷺ، وهو قول كعب الأحبار؛ فرسول الله ﷺ هو المشكاة أو صدره والمصباح هو النبوة وما يتصل بها من عمله وهداه، والزجاجة قلبه، والشجرة المباركة هي الوحي، والملائكة رسل الله إليه وسببه المتصل به، والزيت هو الحجج والبراهين والآيات التي تضمنها الوحي. ومن قال: الممثل به

المؤمن، وهو قول أبيّ؛ فالمشكاة صدره، والمصباح الإيمان والعلم، والزجاجة قلبه، وزيتها هو الحجج والحكمة التي تضمنها. قال أبيّ: فهو على أحسن الحال يمشي في الناس كالرجل الحي يمشي في قبور الأموات. ومن قال: إن الممثل به هو القرآن والإيمان؛ فتقدير الكلام: مثل نوره الذي هو الإيمان في صدر المؤمن في قلبه كمشكاة؛ أي كهذه الجملة. وهذا القول ليس في مقابلة التشبيه كالأولين؛ لأن المشكاة ليست تقابل الإيمان. وقالت طائفة: الضمير في{نُورِهِۦ} عائد على الله تعالى. وهذا قول ابن عباس فيما ذكر الثعلبي والماوردي والمهدوي، وقد تقدم معناه. ولا يوقف على هذا القول على{وَٱلْأَرْضِ}.

قال المهدوي: الهاء لله عز وجل؛ والتقدير: الله هادي أهل السماوات والأرض، مثل هداه في قلوب المؤمنين كمشكاة؛ وروي ذلك عن ابن عباس. وكذلك قال زيد بن أسلم، والحسن: إن الهاء لله عز وجل. وكان أبيّ وابن مسعود يقرآنها{مثل نوره في قلب المؤمن كمشكاة}. قال محمد بن علي الترمذي: فأما غيرهما فلم يقرأها في التنزيل هكذا، وقد وافقهما في التأويل أن ذلك نوره قلب المؤمن، وتصديقه في آية أخرى يقول{أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ} [الزمر: ٢٢]، وأن هذا مثل ضربه الله تعالى لنوره، ولا يمكن أن يضرب لنوره المعظم مثلا تنبيها لخلقه إلا ببعض خلقه لأن الخلق لقصورهم لا يفهمون إلا بأنفسهم ومن أنفسهم، ولولا ذلك ما عرف الله إلا الله وحده، قاله ابن العربي، قال ابن عباس: هذا مثل نور الله وهداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإن مسته النار زاد ضوؤه، كذلك قلب المؤمن يكاد يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم زاده هدى على هدى ونورا على نور؛ كقول إبراهيم من قبل أن تجيئه المعرفة{هَٰذَا رَبِّى}

[الأنعام: ٧٦]، من قبل أن يخبره أحد أن له ربا؛ فلما أخبره الله أنه ربه زاد هدى، فقال له ربه:{أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [البقرة: ١٣١].

ومن قال: إن هذا مثل للقرآن في قلب المؤمن قال: كما أن هذا المصباح يستضاء به ولا ينقص فكذلك القرآن يهتدي به ولا ينقص فالمصباح القرآن والزجاجة قلب المؤمن والمشكاة لسانه وفهمه والشجرة المباركة شجرة الوحي.{يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ} تكاد حجج القرآن تتضح ولو لم يقرأ.{نُورٌ عَلَى نُورٍ} يعني أن القرآن نور من الله تعالى لخلقه، مع ما أقام لهم من الدلائل والإعلام قبل نزول القرآن، فازدادوا بذلك نورا على نور. ثم أخبر أن هذا النور المذكور عزيز وأنه لا يناله إلا من أراد الله هداه فقال{يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ} أي يبين الأشباه تقريبا إلى الأفهام.{وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} أي بالمهدي والضال.

وروي عن ابن عباس أن اليهود قالوا: يا محمد، كيف يخلص نور الله تعالى من دون السماء؟ فضرب الله تعالى ذلك مثلا لنوره؛ ولما كانت المساجد بيوت الله في الأرض ومصدر نور هدايته ومنارات إشعاع للسالكين، ثنّى الله عز وجل بذكرها والتنويه بفضل عمارتها وعُمّارها، فقال عز من قائل:

{فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾} [النور: ٣٦ - ٣٧].

{وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم: ٢٥].

❋ ❋ ❋

المثل الثاني والثلاثون

كسراب بقيعة

المثل الثاني والثلاثون:
كسراب بقيعة

يقول الله جلّ وعلا:

{ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ} [النور: ٣٩].

قال ابن كثير:

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار - أي هذا المثل والذي يليه، فأما الأول من هذين المثلين فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر على شيء، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض من بُعد كأنه بحر طامٍ، والقيعة جمع قاع كجار وجيرة، وهي الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب، يُرى كأنه ماء بين السماء والأرض، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء يحسبه ماء قصده ليشرب منه، فلما انتهى إليه{لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا}، فكذلك الكافر، يحسب أنه قد عمل عملاً وأنه قد حصّل شيئاً، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ونوقش على أفعاله لم يجد له شيئاً بالكلية، كما قال تعالى:{ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا } [الفرقان: ٢٣]، وقال ههنا:{وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ}، وفي الصحيحين:«أنه يقال يوم القيامة لليهود ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عزير ابن الله، فيقال كذبتم ما اتخذ الله من ولد ماذا تبغون؟ فيقولون: يا رب عطشنا فاسقنا، فيقال: ألا ترون؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فينطلقون فيتهافتون

فيها»[1].

وهذا المثل مثل لذوي الجهل المركب.

وقال القرطبي:

قوله {وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ} لما ضرب مثل المؤمن ضرب مثل الكافر. قال مقاتل: نزلت في شيبة بن ربيعة بن عبد شمس، كان يترهب متلمسا للدين، فلما خرج ﷺ كفر. وقال أبو سهل: نزلت في أهل الكتاب. وقال الضحاك: في أعمال الخير للكافر؛ كصلة الرحم ونفع الجيران. والسراب: ما يرى نصف النهار في اشتداد الحر، كالماء في المفاوز يلتصق بالأرض. والآل الذي يكون ضحى كالماء إلا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين الأرض والسماء. وسمي السراب سرابا لأنه يسرب أي يجري كالماء. ويقال: سَرَب الفحل أي مضى وسار في الأرض. ويسمي الآل أيضا، ولا يكون إلا في البرية والحر فيغتر به العطشان. قال الشاعر:

فكنت كمهريق الذي في سقائه ::: لرقراق آل فوق رابية صلد

وقال آخر:

فلما كففنا الحرب كانت عهودهم ::: لمع سراب بالفلا متألق

وقال امرؤ القيس:

ألم أنض المطي بكل خرق ::: أمق الطول لّماع السرابِ

والقيعة جمع القاع؛ مثل جيرة وجار؛ قاله الهروي وقال أبو عبيدة: قيعة وقاع واحد؛ حكاه النحاس. والقاع ما انبسط من الأرض

(١) أخرجه الشيخان.

واتسع ولم يكن فيه نبت، وفيه يكون السراب. وأصل القاع الموضع المنخفض الذي يستقر فيه الماء، وجمعه قيعان. قال الجوهري: والقاع المستوي من الأرض؛ والجمع أقوع وأقواع وقيعان، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها؛ والقيعة مثل القاع، وهو أيضا من الواو. وبعضهم يقول: هو جمع.

{يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ} أي العطشان.{مَآءً} أي يحسب السراب ماء.{حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا} مما قدره ووجد أرضا لا ماء فيها. وهذا مثل ضربه الله تعالى للكفار، يعولون على ثواب أعمالهم فإذا قدموا على الله تعالى وجدوا ثواب أعمالهم محبطة بالكفر؛ أي لم يجدوا شيئا كما لم يجد صاحب السراب إلا أرضا لا ماء فيها؛ فهو يهلك أو يموت.{وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ} أي وجد الله بالمرصاد.{فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ} أي جزاء عمله.

قال امرؤ القيس:

فولى مدبرا يهوي حثيثا ::: وأيقن أنه لاقى الحسابا

وقيل: وجد وعد الله بالجزاء على عمله. وقيل: وجد أمر الله عند حشره، والمعنى متقارب. وقرئ{بقيعات}. المهدوي: ويجوز أن تكون الألف مشبعة من فتحه العين، وقوله{وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا} ابتداء{أَعْمَٰلُهُمْ} ابتداء ثان. والكاف من{كَسَرَابٍ} الخبر، والجملة خبر عن{وَٱلَّذِينَ}. ويجوز أن تكون{أَعْمَٰلُهُمْ} بدلا من{وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا}؛ أي وأعمال الذين كفروا كسراب، فحذف المضاف.

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: ٢١].

***

المثل الثالث والثلاثون

كظلمات في بحر لُجّي

المثل الثالث والثلاثون:
كظلمات في بحر لجي

يقول الله جلّ جلاله:

{أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾} [النور: ٤٠].

قال القرطبي: قوله{أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ} ضرب تعالى مثلا آخر للكفار أي أعمالهم كسراب بقيعة أو كظلمات. قال الزجاج: إن شئت مثل بالسراب وإن شئت مثل بالظلمات فـ{أَوْ} للإباحة حسبما تقدم من القول في { أَوْ كَصَيِّبٍ } [البقرة: ١٩] . وقال الجرجاني: الآية الأولى في ذكر أعمال الكفار والثانية في ذكر كفرهم ونسق الكفر على أعمالهم لأن الكفر أيضا من أعمالهم وقد قال:{يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ} [البقرة: ٢٥٧]، أي من الكفر إلى الإيمان وقال أبو علي{أَوْ كَظُلُمَٰتٍ} أو كذي ظلمات ودل على هذا المضاف قوله{إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ} فالكناية تعود إلى المضاف المحذوف. قال القشيري: فعند الزجاج التمثيل وقع لأعمال الكفار، وعند الجرجاني لكفر الكافر، وعند أبي علي للكافر. وقال ابن عباس في رواية: هذا مثل قلب الكافر.{فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ} قيل: هو منسوب اللُّجة، وهو الذي لا يدرك قعره. واللُّجة معظم الماء، والجمع لُجج. والتَجّ البحر إذا تلاطمت أمواجه؛ ومنه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال:«من ركب البحر إذا التجّ فقد برئت منه الذمة». والتج الأمر إذا عظم واختلط. وقوله{حَسِبَتْهُ لُجَّةً} [النمل: ٤٤]، أي ما له

عمق. ولججت السفينة أي خاضت اللُّجة بضم اللام. فأما اللَّجة بفتح اللام فأصوات الناس يقول: سمعت لجة الناس أي أصواتهم وصخبهم.

قال أبو النجم:

في لـجَّة أمسك فلانا عن فلِ

والتجت الأصوات أي اختلطت وعظمت.{يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ} أي يعلو ذلك البحر اللجي موج.{مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ} أي من فوق الموج موج، ومن فوق هذا الموج الثاني سحاب؛ فيجتمع خوف الموج وخوف الريح وخوف السحاب. وقيل: المعنى يغشاه موج من بعده موج؛ فيكون المعنى: الموج يتبع بعضه بعضا حتى كأن بعضه فوق بعض، وهو أخوف ما يكون إذا توالى موجه وتقارب ومن فوق هذا الموج سحاب. وهو أعظم للخوف من وجهين: أحدهما: أنه قد غطى النجوم التي يهتدي بها. الثاني: الريح التي تنشأ مع السحاب والمطر الذي ينزل منه.{ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ} قرأ ابن محيصن واليزي عن ابن كثير{سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌ} بالإضافة والخفض.وقنبل:{سَحَابٌ} منونا{ظُلُمَٰتٌ} بالجر والتنوين. الباقون بالرفع والتنوين. قال المهدوي: من قرأ :{مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌ} بالإضافة فلأن السحاب يرتفع وقت هذه الظلمات فأضيف إليها؛ كما يقال: سحاب رحمة إذا ارتفع في وقت المطر. ومن قرأ{سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌ} جر{ظُلُمَٰتٌ} على التأكيد لـ{ظُلُمَٰتٌ} الأولى أو البدل منها. و{سَحَابٌ} ابتداء و{مِّن فَوْقِهِۦ} الخبر. ومن قرأ{سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌ} فظلمات خبر ابتداء محذوف التقدير: هي ظلمات أو هذه ظلمات. قال ابن الأنباري{مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ} غير تام؛ لأن قول{مِّن فَوْقِهِۦ

سَحَابٌ} صلة للموج، والوقف على قوله:{مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ} حسن ثم تبتدئ{ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ} على معنى هي ظلمات بعضها فوق بعض. وروي عن أهل مكة أنهم قرأوا{ظُلُمَٰتٌ} على معنى أو كظلمات ظلمات بعضها فوق بعض فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على السحاب. ثم قيل: المراد بهذه الظلمات ظلمة السحاب وظلمة الموج وظلمة الليل وظلمة البحر؛ فلا يبصر من كان في هذه الظلمات شيئا ولا كوكبا. وقيل: المراد بالظلمات الشدائد؛ أي شدائد بعضها فوق بعض. وقيل: أراد بالظلمات أعمال الكافر، وبالبحر اللجي قلبه، وبالموج فوق الموج ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة، وبالسحاب الران والختم والطبع على قلبه. روي معناه عن ابن عباس وغيره؛ أي لا يبصر بقلبه نور الإيمان، كما أن صاحب الظلمات في البحر إذا أخرج يده لم يكد يراها. وقال أبيّ بن كعب: الكافر يتقلب في خمس من الظلمات: كلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات في النار وبئس المصير. قوله{إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ} يعني الناظر. {لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا} أي من شدة الظلمات. قال الزجاج وأبو عبيدة: المعنى لم يرها ولم يكد؛ وهو معنى قول الحسن. ومعنى{لَمْ يَكَدْ} لم يطمع أن يراها. وقال الفراء: كاد صلة، أي لم يرها؛ كما تقول: ما كدت أعرفه. وقال المبرد: يعني لم يرها إلا من بعد الجهد؛ كما تقول: ما كدت أراك من الظلمة، وقد رآه بعد يأس وشدة. وقيل: معناه قرب من الرؤية ولم ير كما يقال: كاد العروس يكون أميرا وكاد النعام يطير وكاد المنتعل يكون راكبا. النحاس: وأصح الأقوال في هذا أن المعنى لم يقارب رؤيتها، فإذا لم يقارب رؤيتها فلم يرها رؤية بعيدة ولا قريبة.{وَمَن لَّمْ

{يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا} يهتدي به حين أظلمت عليه الأمور. وقال ابن عباس: أي من لم يجعل الله له دينا فما له من دين، ومن لم يجعل الله له نورا يمشي به يوم القيامة لم يهتد إلى الجنة؛ كقوله{وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ} [الحديد: ٢٨]. وقال الزجاج: ذلك في الدنيا والمعنى: من لم يهده الله لم يهتد.

وقال ابن كثير: فأما أصحاب الجهل البسيط، وهم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون فمثلهم كما قال تعالى:{أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ} قال قتادة:{لُّجِّيٍّ} هو العميق، {يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا} أي لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده، ولا يدري أين يذهب، بل كما يقال في المثل للجاهل: أين تذهب؟ قال: معهم، قيل: فإلى أين يذهبون؟ قال: لا أدري. وقال ابن عباس رضي الله عنهما{يَغْشَاهُ مَوْجٌ} يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر، وهي كقوله:{خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} [البقرة: ٧] الآية. وكقوله:{وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً} [الجاثية: ٢٣] الآية. فالكافر يتقلب في خمس من الظلم: فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار، وقوله تعالى:{وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ} أي من لم يهده الله فهو هالك جاهل بائر كافر، كقوله:{مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ} [الأعراف: ١٨٦]، وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين{يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ} [النور: ٣٥]، فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً، وعن أيماننا نوراً، وعن شمائلنا نوراً، ومن فوقنا نوراً ومن تحتنا

نوراً ومن بين أيدينا نوراً ومن خلفنا نوراً وفي سمعنا نوراً وفي بصرنا نوراً وفي قبورنا نوراً وعلى الصراط نوراً وأن يعظم لنا نوراً. آمين

هذا، وفي الآية إعجاز علمي عظيم يُعدّ من دلائل نبوته ﷺ يلفت الأنظار إلى نوع من الأمواج في باطن المحيطات وبين لُجج المياه العميقة لم يعرفه السابقون، ولم يكتشفه علماء العصر الحديث إلا مؤخراً، أحاط به علم الله الواسع المحيط وأشار إليه في هذه الآية{مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ} فمن علّمه للنبي الأمي الذي لم يركب البحر في حياته قط؟!! إنه حقاً كلام الله ربِّ العالمين نزل به الروح الأمين على قلبه ليكون من المنذرين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

{كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ} [محمد: ٣].

* * *

المثل الرابع والثلاثون

كمثل غيث أعجب الكفارَ نباتُه

المثل الرابع والثلاثون:
كمثل غيث أعجب الكفار نباته

يقول الله تقدست أسماؤه:

{ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ }
[الحديد: ٢٠].

قال الشوكاني في فتح القدير:

لما ذكر حال الفريقين في الآخرة حقر أمور الدنيا أعني ما لا يتوصل به إلى الفوز الآجل بأن بين أنها أمور خيالية قليلة النفع سريعة الزوال لأنها لعب يتعب الناس فيه أنفسهم جدا إتعاب الصبيان في الملاعب من غير فائدة ولهو يلهون به أنفسهم عما يهمهم وزينة كالملابس الحسنة والمواكب البهية والمنازل الرفيعة وتفاخر بالأنساب أو تكاثر بالعَدد والعُدد ثم قرر ذلك بقوله:{كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا}.

وهو تمثيل لها في سرعة زوالها وقلة جدواها بحال نبات أنبته الغيث فاستوى وأُعجب به الحُرّاث أو الكافرون بالله لأنهم أشدُّ إعجابا بزينة الدنيا ولأن المؤمن إذا رأى معجبا انتقل فكره إلى قدرة صانعه فأعجب بها والكافر لا يتخطى فكره عما أحس به فيستغرق فيه إعجابا، ثم هاج أي يبس بعاهة فاصفر ثم صار حطاما، ثم عظّم أمور الآخرة الأبدية بقوله:{وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ} تنفيرا عن الانهماك

في الدنيا وحثًّا على ما يوجب كرامة العقبى ثم أكد ذلك بقوله:{وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ} أي لمن أقبل عليها ولم يطلب إلا الآخرة:{وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ} أي لمن أقبل عليها ولم يطلب بها الآخرة.

وقال ابن كثير:

ثم ضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال:{كَمَثَلِ غَيْثٍ} وهو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس كما قال تعالى:{وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟} [الشورى: ٢٨]، وقوله تعالى:{أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ} أي يُعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث كما يعجب الزراع كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها.

{ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا} أي يهيج ذلك الزرع فتراه مصفرا بعدما كان خضرا نضرا ثم يكون بعد ذلك كله حطاما أن يصير يبسا متحطما هكذا الحياة الدنيا تكون أولا شابة ثم تكتهل ثم تكون عجوزا شوهاء، والإنسان يكون كذلك أول عمره وعنفوان شبابه غضًّا طريًّا لين الأعصاف بهي المنظر ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه ويفقد بعض قواه ثم يكبر فيصير شيخا كبيرا ضعيف القوى قليل الحركة يعجزه الشيء اليسير كما قال تعالى:{ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾} [الروم: ٥٤]، ولما كان هذا المثل دالا على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة وأن الآخرة كائنة لا محالة حذر من أمرها ورغب فيها من الخير فقال:{وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ} أي وليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا إما عذاب شديد وإما مغفرة من الله ورضوان وقوله تعالى:{وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ

ٱلْغُرُورِ } أي هي متاع فانٍ زائل لمن ركن إليه فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أن لا دار سواها ولا معاد وراءها وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة.

روى ابن جرير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ :«لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرءوا:{وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ }» وهذا حديث ثابت في الصحيح بدون هذه الزيادة والله أعلم وقال الإمام أحمد (١/ ٣٨٧ و٤٤٢) حدثنا ابن نمير ووكيع كلاهما عن الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ :«للجنة أقرب إلى أحدكم إلى شراك نعله والنار مثل ذلك» انفرد بإخراجه البخاري في الرقاق (٦٤٨٨) من حديث الثوري عن الأعمش به ففي هذا الحديث على اقتراب الخير والشر من الإنسان وإذا كان الأمر كذلك فلهذا حثّ الله تعالى على المبادرة على الخيرات من فعل الطاعات وترك المحرمات التي تكفر عنه الذنوب والزلات وتحل له الثواب والدرجات فقال تعالى: {سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ} [الحديد: ٢١]، كما قال تعالى في الآية الأخرى:{وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾} [آل عمران: ١٣٣]، وقال هاهنا:{أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ} [الحديد: ٢١]، وهكذا تتقارب ألفاظ القرآن العظيم، وتتشابه أمثاله في تحقير شأن الدنيا والتهوين من أمرها حتى لا يركن الناس إليها وينسوا الآخرة{وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾} [الضحى: ٤]، {وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾} [الأعلى: ١٧].

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾} [الإسراء: ٨٩].

* * *

المثل الخامس والثلاثون

كمثل العنكبوت اتخذت بيتا

المثل الخامس والثلاثون:
كمثل العنكبوت اتخذت بيتا

يقول الله جل وعلا:

{مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾}

[العنكبوت: ٤١ - ٤٣].

قال القرطبي:

قولـــــــه:{مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ} قال الأخفش{كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ} وقف تام، ثم ذكر قصتها فقال{ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا} قال ابن الأنباري: وهذا غلط؛ لأن{ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا} صلة للعنكبوت كأنه قال: (كمثل التي اتخذت بيتا) فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول وهو بمنزلة قوله {كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} [الجمعة: ٥]، فيحمل صلة للحمار ولا يحسن الوقف على الحمار دون يحمل قال الفراء: هو مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره؛ كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرا ولا بردا ولا يحسن الوقف على العنكبوت؛ لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيء فشبهت الآلهة التي لا تنفع ولا تضر به.{وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ} أي أضعف البيوت.{لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ} قال الضحاك: ضرب مثلا لضعف آلهتهم ووهنها فشبهها ببيت

العنكبوت.{لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}، متعلقة ببيت العنكبوت أي لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت التي لا تغني عنهم شيئا وأن هذا مثلهم لما عبدوها؛ لا أنهم يعلمون أن بيت العنكبوت ضعيف. وقال النحاة: إن تاء العنكبوت في آخرها مزيدة؛ لأنها تسقط في التصغير والجمع وهي مؤنثة وحكى الفراء تذكيرها وأنشد:

على هطالهم منهم بيوت ::: كأن العنكبوت قد ابتناها

ثم قال: قوله:{ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ}،{مَا} بمعنى الذي{مِن} للتبعيض ولو كانت زائدة للتوكيد لانقلب المعنى، والمعني: إن الله يعلم ضعف ما يعبدون من دونه، وقرأ عاصم وأبو عمرو ويعقوب{يَدْعُونَ} بالياء وهو اختيار أبي عبيد لذكر الأمم قبلها الباقون بالتاء على الخطاب، قوله{ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ} أي هذا المثل وغيره مما ذكر في - البقرة - (البعوضة) و- الحج - (الذباب) وغيرهما{نَضْرِبُهَا } نبينها{لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا } أي يفهمها{إِلَّا الْعَالِمُونَ} أي العالمون بالله كما روى جابر عن النبي ﷺ أنه قال:«العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه»، وعند الدارمي: قال رجل للشعبي: أفتني أيها العالم، قال: (العالم من يخاف الله).

وقال ابن كثير:

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم

المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها، ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به: إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم، ثم قال تعالى: { وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ} أي وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه: عن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني لأني سمعت الله تعالى يقول:{ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ}[1].

قال الزمخشري:

الغرض تشبيه ما اتخذوه متكلاً ومعتمداً في دينهم وتولوه من دون الله بما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القوة، وهو نسج العنكبوت. ألا ترى إلى مقطع التشبيه وهو قوله {وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ} فإن قلت: ما معنى قوله{لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ} وكل أحد يعلم وهن بيت العنكبوت قلت: معناه لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن، ووجه آخر: وهو أنه إذا صح تشبيه ما اعتمدوه في دينهم ببيت العنكبوت وقد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فقد تبين أن دينهم أوهن الأديان لو كانوا يعلمون.. أو أخرج الكلام بعد تصحيح التشبيه مخرج المجاز فكأنه قال: وإن أوهن ما يعتمدون عليه في الدين عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون. ولقائل أن يقول: مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت يتخذ بيتاً بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً بآجر وجص أو بنحته من صخر وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون، قرئ: تدعون بالتاء والياء. وهذا توكيد للمثل وزيادة عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيئاً{وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} فيه تجهيل لهم حيث عبدوا ما ليس بشيء لأنه جماد ليس معه مصحح العلم والقدرة أصلاً وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شئ الحكيم الذي لا يفعل شيئاً إلا بحكمه وتدبير.

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ} كان الجهلة والسفهاء من قريش يقولون: إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ويضحكون من ذلك فلذلك قال{وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ} أي لا يعقل صحتها وحسنها وفائدتها إلا العالمون لأنها تكشف عنها وتصورها للأفهام، كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه.

{وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: ٢١].

❋ ❋ ❋

المثل السادس والثلاثون

هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء

المثل السادس والثلاثون:
هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء

يقول الله عز وجل:

{(٢٧) ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ} [الروم: ٢٧ - ٢٩].

قال ابن كثير:

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين، العابدين معه غيره، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ملك له، كما كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، فقال تعالى:{ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ} أي تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم{هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ } أي أيرضى أحدكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله، فهو وهو فيه على السواء؟{تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ} أي تخافون أن يقاسموكم الأموال، قال أبو مجلز: إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك وليس له ذاك، كذلك الله لا شريك له، والمعنى: أن أحدكم يأنف من ذلك فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه؟ وهذا كقوله تعالى: { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ} [النحل: ٦٢]، فهم يأنفون من البنات، وجعلوا الملائكة بنات الله، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم فهذا أغلظ الكفر، وهكذا في هذا المقام جعلوا له شركاء من

عبيده وخلقه، وأحدهم يأبى غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة، من ذلك أن يكون عبده شريكه في ماله يساويه فيه ولو شاء لقاسمه عليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولما كان التنبيه بمثل هذا المثل على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك بطريق الأَوْلى والأحرى، قال تعالى:{كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره سفهاً من أنفسهم وجهلاً:{بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ} أي المشركون{أَهْوَآءَهُم} أي في عبادتهم الأنداد بغير علم،{فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ} أي فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم،{وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ} أي ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير.

وقال الشوكاني في فتح القدير:

أي مثلا منتزعا ومأخوذا من أنفسكم فإنها أقرب شيء منكم وأبين من غيرها عندكم فإذا ضرب لكم المثل بها في بطلان الشرك كان أظهر دلالة وأعظم وضوحا، ثم بين المثل المذكور فقال:{هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ} من في ممما ملكت للتبعيض وفي من شركاء زائدة للتأكيد والمعنى هل لكم شركاء فيما رزقناكم كائنون من النوع الذي ملكت أيمانكم وهم العبيد والإماء والاستفهام للإنكار وجملة:{فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ} جواب للاستفهام الذي بمعنى النفي ومحققه لمعنى الشركة بينهم وبين العبيد والإماء المملوكين لهم في أموالهم أي هل ترضون لأنفسكم والحال أن عبيدكم وإماءكم أمثالكم في البشرية أن يساووكم في التصرف بما رزقناكم من الأموال ويشاركوكم فيها من غير فرق بينكم وبينهم.

{تَخَافُونَهُمْ خِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ} الكاف نعت مصدر محذوف أي تخافونهم خيفة كخيفتكم أنفسكم أي كما تخافون الأحرار المشابهين لكم في الحرية وملك الأموال وجواز التصرف، والمقصود نفي الأشياء الثلاثة الشركة بينهم وبين المملوكين والاستواء معهم وخوفهم إياهم وليس المراد ثبوت الشركة ونفي الاستواء والخوف كما قيل في قولهم: (ما تأتينا فتحدثنا) والمراد إقامة الحجة على المشركين فإنهم لا بد أن يقولوا لا نرضى بذلك فيقال لهم فكيف تنزهون أنفسكم عن مشاركة المملوكين لكم وهم أمثالكم في البشرية وتجعلون عبيد الله شركاء له فإذا بطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة بطلت الشركة بين الله وبين أحد من خلقه، والخلق كلهم عبيد الله تعالى ولم يبق إلا أنه الرب وحده لا شريك له، قرأ الجمهور أنفسكم بالنصب على أنه معمول المصدر المضاف إلى فاعله وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع على إضافة المصدر إلى مفعوله.{كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ} تفصيلا واضحا وبيانا جليا.

{لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} لأنهم الذين ينتفعون بالآيات التنزيلية والتكوينية باستعمال عقولهم في تدبرها والتفكر فيها ثم أضرب سبحانه عن مخاطبة المشركين وإرشادهم إلى الحق بما ضربه لهم من المثل فقال:

{بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ} أي لم يعقلوا الآيات بل اتبعوا أهواءهم الزائغة وآراءهم الفاسدة الزائفة، ومحل{بِغَيْرِ عِلْمٍ} النصب على الحال أي جاهلين بأنهم على ضلالة{فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ} أي لا أحد يقدر على هدايته لأن الرشاد والهداية بتقدير الله وإرادته{وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ} أي ما لهؤلاء الذين أضلهم الله من

ناصرين ينصرونهم ويحولون بينهم وبين عذاب الله سبحانه.

وهذا المثل يشبه قوله تعالى في سورة النحل:

{ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ } [النحل: ٧١].

{ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ }

[العنكبوت: ٤٣].

❊ ❊ ❊